بسم الله الرحمن الرحيم

لا يخفى على أحدٍ ما للابتسامة من تأثير بالغ ومفعول ساحرٍ على الآخرين، فقد فطر الله الخلق على محبة صاحب الوجه الذي يلقى من حوله بابتسامة تذهب عن النفوس هموم الحياة ومتاعبها، وتشيع أجواء من الطمأنينة، وتلك من الخصال المتفق على استحسانها وامتداح صاحبها .

وقد كانت البسمة إحدى صفات النبي صلى الله عليه وسلم التي تحلّى بها، حتى أنه لم تفارق الابتسامة تفارق محيّاه ، فصارت عنواناً له وعلامةً عليه، يُدرك ذلك كل من صاحبه وخالطه، وعَنْ عَبْدِ اللهِّ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ جَزْءٍ قَالَ: ((مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَكْثَرَ تَبَسُّمًا مِنْ رَسُولِ اللهِّ صلى الله عليه وسلم))، عَنْ جَرِيرٍ بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قَالَ: ((مَا حَجَبَنِي صلى الله عليه وسلم مُنْذُ أَسْلَمْتُ، وَلاَ رَآنِي إِلاَّ تَبَسَّمَ فِي وَجْهِي))، بذلك استطاع كسب مودّة من حوله ليتقبّلوا الحق الذي جاء به .

وباستقراء كتب السنة نجد أن أكثر أحواله النبي صلى الله عليه وسلم هي الابتسامة، وفي بعض الأحيان كان يزيد على ذلك فيضحك باعتدال دون إكثارٍ منه أو علوّ في الصوت، وهذه هي سنة الأنبياء كما قال الإمام الزجّاج: (التبسّم أكثر ضحك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام)، قال جابر بن سمرة: ((كان صلى الله عليه وسلم طويل الصمت قليل الضحك))، وتقول السيدة عائشة رضي الله عنها:((مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِّ صلى الله عليه وسلم ضَاحِكًا حَتَّى أَرَى مِنْهُ لَهَوَاتِهِ -وهي اللحمة الموجودة في أعلى الحنجرة- إِنَّمَا كَانَ يَتَبَسَّمُ))، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في وصفه:(وكان معظم ضحكه التبسّم، يفترّ عن مِثل حبّ الغمام- يعني بذلك بياض أسنانه).

يقول الإمام ابن حجر: والذي يظهر من مجموع الأحاديث أنه صلى الله عليه وسلم كان لا يزيد في معظم أحواله عن التبسّم، وربما زاد على ذلك فضحك؛ والمكروه في ذلك إنما هو الإكثار من الضحك أو الإفراط؛ لأنه يُذهب الوقار.

وكتب السيرة مليئة بالمواقف التي ذُكرت فيها طلاقة وجهه صلى الله عليه وسلم، فتراه يخاطب من حوله فيبتسم، أو يفتي الناس فيضحك، أو تمر به الأحداث المختلفة فيقابلها بإشراقة نفس وبشاشة روح، وفي

السنة عشرات الأحاديث والمواقف التي تبسم فيها النبي صلى الله عليه وسلم.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:((كان صلى الله عليه وسلم يخطب يوم جمعة، فقام الناس فصاحوا وقالوا: يا رسول الله قحط المطر، واحمرّت الشجر، وهلكت البهائم، فادع الله أن يسقينا، فقال:(اللهم اسقنا) مرتين، فنشأت سحابة وأمطرت، ونزل النبي صلى الله عليه وسلم عن المنبر فصلى، فلما انصرف لم تزل تمطر إلى الجمعة التي تليها، فلما قام صلى الله عليه وسلم يخطب صاحوا إليه: تهدمت البيوت، وانقطعت السبل، فادع الله يحبسها عنا، فتبسّم النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال: (اللهم حوالينا ولا علينا)، فما يشير بيده إلى ناحية من السحاب إلا انفرجت، فجعلت تمطر حول المدينة ولا تمطر بالمدينة معجزةً لنبيه صلى الله عليه وسلم وإجابةً لدعوته)).

وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: وقع عليّ من الهمّ ما لم يقع على أحد، فبينما أنا أسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفرٍ قد خفقت برأسي من الهمّ، إذ أتاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرك أذني وضحك في وجهي، فما كان يسرني أن لي بها الخلد في الدنيا)).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ((خرجت مع النبي صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره، وأنا جارية لم أحمل اللحم ولم أبدُن، فقال للناس: (تقدموا)، فتقدموا، ثم قال لي: (تعالي حتى أسابقك)، فسابقته فسبقته، فسكت عني، حتى إذا حملت اللحم وبدنتُ ونسيتُ خرجت معه في بعض أسفاره، فقال للناس: (تقدموا)، فتقدموا، ثم قال: (تعالي حتى أسابقك)، فسابقته فسبقني ، فجعل يضحك وهو يقول: (هذه بتلك).

وعن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، رأيت في المنام كأن رأسي قُطع، فضحك صلى الله عليه وسلم وقال:((إذا لعب الشيطان بأحدكم في منامه فلا يحدث به الناس)).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: أصبحت أنا وحفصة صائمتين، فأهدي لنا طعام فأكلنا منه، ودخل علينا النبي صلى الله عليه وسلم فابتدرتني حفصة فقالت: يا رسول الله، أصبحنا صائمتين ، فأهدي لنا طعام فأكلنا منه، فتبسّم صلى الله عليه وسلم وقال: ((صوما يوما مكانه)).

وفي نفس السياق حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما نحن جلوس عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجل فقال: يا رسول الله هلكتُ، فقال له: ما لك ؟، قال: وقعت على امرأتي وأنا صائم، فقال صلى

الله عليه وسلم: هل تجد رقبة تعتقها؟، قال: لا. قال: فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟، قال: لا. فقال: فهل تجد إطعام ستين مسكينا؟، قال: لا. فمكث صلى الله عليه وسلم حتى أُتي بتمر فقال: أين السائل؟ فقال: أنا. قال: خذ هذا فتصدق به. فقال الرجل: أعلى أفقر مني يا رسول الله؟ فوالله ما بين لابتيها– أي المدينة – أهل بيت أفقر من أهل بيتي، فضحك صلى الله عليه وسلم حتى بدت أنيابه، ثم قال: أطعمه أهلك)).

*وأحيانا كان صلى الله عليه وسلم يروي أخبارا فيبتسم عند ذكرها أو يضحك عند روايتها، كضحكه صلى الله عليه وسلم عند ذكره بشارة الله عزوجل له بركوب أناس من أمته للبحر غازين في سبيل الله، وعند ذكر حال آخِر من يدخل الجنة من أهل الدنيا، وعند سماعه لقول أحد الأحبار في وصف عظمة الله عزوجل، وفي قصّة الرجل الذي استأذن ربّه أن يزرع في الجنّة، بل كان حتى مع المقصرين يتبسم تبسم المغضب العاتب، فهذا كعب بن مالك يحدثنا عن حاله وقت رجوع النبي صلى الله عليه وسلم من غزوة العسرة وتخلفه عن الذهاب معه: ((فَجِئْتُهُ فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ، ثُمَّ قَالَ: تَعَالَ. فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ)).

ولم تنطفئ هذه الابتسامة عن ثغره الطاهر، حتى في آخر لحظات حياته، وهو يودع الدنيا يقول أنس:((بينما الْمُسْلِمُونَ فِي صَلاَةِ الْفَجْرِ مِنْ يَوْمِ الإِثْنَيْنِ وَأَبُو بَكْرٍ يُصَلِّي بِهِمْ لَمْ يَفْجَأْهُمْ إِلاَّ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَدْ كَشَفَ سِتْرَ حُجْرَةِ عَائِشَةَ، فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ وَهُمْ فِي صُفُوفِ الصَّلاَةِ. ثُمَّ تَبَسَّمَ يَضْحَكُ))،

وهكذا كانت الابتسامة لا تفارقه صلى الله عليه وسلم في جميع أحواله، فتخلقوا بأخلاقه، وسيروا على طريقته وهديه وسنته، فعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ صلى الله عليه وسلم: ((تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ)) وقال أيضاً: ((لاَ تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ)).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين